عيسى حميدي المعتوقي (1914م-1962م) ودوه في الحركة الوطنية والثورة

الدكتور / حميدي أبوبكر الصديق
جامعة محمد بوضياف المسيلة

مقدمة :

في هذه المداخلة نحاول التعريف بشخصية اصلاحية وثورية بارزة في الحضنة، وذلك من خلال استعراض مسيرتها العلمية والوطنية ودورها في الحركة الاصلاحية والثورة التحريرية، ونعتمد في ذلك على ما تيسر لنا من مصادر مخطوطة وأخرى شفوية.

أولا / البيئة السياسية والدينية التي ظهر فيها الشيخ عيسى المعتوقي:

هناك جملة من الحيثيات التي يجب إدراجها في بداية هذا الموضوع حول البيئة التي ظهر فيها مترجمنا، من الظروف الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكذلك الدينية، لأن هذه العوامل هي جزء من المؤثرات الدافعة أو المنغصة في حياة الأفراد فما بالك بالعلماء : ويمكنك أن نوجزها في :

أولها: أن المصادر المحلية المكتوبة والتي يمكن أن تكون من أهله هي قليلة ونادرة في بعض المواضيع وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى حالة الأمية والتشرد في المنطقة بفعل الاستعمار وبالتالي ندرة وجود نخبة مثقفة يمكن أن يبرز من بينها العدد الكافي الذي يدون لنا هذا التراث الخاص بالمنطقة.

والثاني: قلة الحواضر العلمية الكبيرة على غرار المدن الكبرى (وقسنطينة، العاصمة، تلمسان..) وما يوجد هو عدد من الزوايا التي يقتصر عملها على التعليم الأول وتحفيظ القرآن.الثالث: اقتصار المدرسة الفرنسية على المدينة (المسيلة، بوسعادة، سيدي عيسى، ..) ولا يدخلها إلا عدد محدود .انتشار ظاهرة الطرقية المدعومة من قبل الاستعمار وفي غالبيتها لا تخرج رجالا لهم باعا من الفكر والإنتاج العلمي الذي يسجل تاريخ هذه المنطقة. ونسجل أن مدينة المسيلة يبدو أنها التحقت بركب الإصلاح متأخرة مقارنة

ببعض المدن القريبة منها سطيف، البرج، برج الغدير، بوسعادة وهذا التأخر من حيث بناء مقرات ومدارس تابعة للعلماء أو من حيث الزيارات التي كان يقوم بها رجال الجمعية إلى المنطقة كما أن الذين التحقوا بمدارس الجمعية عامة، وبقسنطينة خاصة (معهد ابن باديس) كانوا قلة معدودين وهذا من خلال تتبع خريجي هذا المعهد.

ثانيا / وضعية المسيلة قبل الحرب العالمية الثانية:

وصل إليها الاحتلال سنة 1840، وتشكلت فيها بلدية المسيلة المختلطة سنة 1884 ضمن المشروع لاستعماري في ظل الإدارة المدنية، وظهر الاستيطان الأوربي بها بشكل مركز منذ 1912. وكل ما كان بها هو بعض النشاط الديني لبعض الطرق والزوايا مثل : زاوية سيدي بوجملين ، وزاوية مُحَمَّد بن عبد الله البوديلمي التي كان صاحبها على اتصال بشيوخ الطريقة الرحمانية بزواوة وأنشأ مدرسة بحي والكراغلة ، كما أن الفرنسيين لم ينشئوا مدرسة إلا في 1887بالمسيلة [1] .ورغم نشاط بعض الزوايا والطرق مع مطلع القرن العشرين لكن المستوى التعليمي والثقافي كان ضعيفا جدا ، وعمت ظاهرة الزردة والحضرة وزيارة الأضرحة ، وهذا ما تشجعه السلطة الفرنسية .

وكانت ندرة في المساجد بالمنطقة عامة، وأن صلاة الجمعة لا توجد إلا في مسجد واحد بالمدينة إلى غاية الحرب العالمية الثانية [2]. وأهم هذه المساجد : مسجد الرمانة ، مسجد خربة التليس ، مسجد سيدي بوجمعة ، وبوجملين ومن أهم أئمتها : بن يحي علي بن عثمان ، بنية النذير ، سالم مسعود بن قويدر ، أحمد بن القاضي ، نور مُحَمَّد بن الحواس ، سلامي مُحَمَّد بن الدهيمي ، مُحَمَّد بن عبد الله بن المكي علي .[3] أما بعد الحرب فأهم مساجد مدينة المسيلة : مسجد بوجملين ، سيدي صالح (راس الحارة إمامه الشهيد مشتي السعيد) ،المسجد العتيق ، مسجد النخلة ، مسجد سيدي بوجمعة ، مسجد سيدي منصور بالشتاوة ، ومسجدين بحي الكوشو ، مسجد بن حليتيم بالعرقوب .

ثالثا / مولده و تعلمه :

الشيخ عيسى المعتوقي من مواليد 1914[4] بدوار الحميدات بقرية المعاتيق بلدية أولاد اعدي لقبالة ، وهو ابن مُحَمَّد بن موسى بن ابراهيم . من عائلة عرفت بتعلقها بالتدين وحفظ القرآن ، فكان والده من حفظة

1 ـ نفسه .

2 ـ حسب عقد الميلاد للمعني الذي اطلعت عليه .

3 ـ بيرم كمال :الأوضاع الاجتماعية، المرجع السابق،ص461.

4 ـ مُحَمَّد حسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج3، مطبعة دار هومة ،الجزائر ،ص ص313-332.

القرآن، ومترجمنا هو أحد ثلاث إخوة (الشريف وعيسى ولخضر) ، وكلهم من حفظة قرآن ، إضافة إلى بنتين ، وتوفوا جميعا رحمهم الله .

و رغم الإمكانيات المادية الصعبة ، فبعد أن حفظ قسطا من القرآن بالمنطقة تاقت نفسه إلى مزيد من العلم والمعرفة مما جعله يتوجه إلى زاوية بوجملين بالمسيلة ، وفي ظل هذه الظروف كان على صلة مع الكثير من أبناء المنطقة الذين لهم رغبة علمية من أبناء الطلبة والشرفة وغيرهم ، وفي الغالب كان طلبة العلم في الحضنة الشرقية يتوجهون إلى بلاد القبائل لتلقي العلوم وحفظ القرآن وحفظ المتون لكثرة الزوايا بها وشهرة شيوخها في العلوم الدينية واللغوية .

وظل يتجول بين الزوايا المختلفة في بلاد القبائل منها تازمالت التي أكمل فيها حفظ القرآن وتمكن من بعض العلوم اللغوية والفقه وفي 1929 انتقل إلى زاوية طولقة حيث نهل علوم الفقه والتوحيد والفرئض ..إلخ [1].

وفي 1933 انتقل إلى قرية النويرة حيث تمكن من الكثير من المتون في اللغة والفقه والتوحيد والسيرة النبوية مثل : رسالة لأبي زيد القيرواني ، لامية الأفعال، و الرحبية ، و لباب الفرائض للشيخ الشطي و جمرة التوحيد و بانت سعاد بشرح إبن هشام و السيرة النبوية [2].

ونعتقد أن سيبدأ مرحلة جديدة في حياته سنة 1934 من خلال انتقاله إلى قسنطينة وتحديدا إلى الجامع الأخضر وتتلمذ على يد عبد الحميد ابن باديس وبعد أن قضى هذه السنوات هناك كان مثلا للجد والمثابرة والشغف الكبير للتحصيل وتخرج بتفوق ، ولما رأت فيه الجمعية هذا الحرص والمثابرة انتدبته ليكون رافدا جديدا لها في نشر العلم والمعرفة في مدارسها عبر الوطن . وكانت أولى محطاته آقبو ثم تازمالت وأخيرا استقر في مدينة طولقة حيث رحب به السكان وأعجب به طلبة العلم ، وكان من بين الطلبة الذين نهلوا من علمه الشيخ أبو بكر جابر الجزائري الذي صار مدرسا بالمدينة المنورة والمدرس الرسمي بالحرم النبوي الشريف [3]فيما بعد .

وفي سنة 1938 قيل أنه انتقل إلى تونس وللإشارة أن هذا الأمر غير مؤكد فلم نعثر على ما يثبت ذلك ، إضافة إلى أن الظرف يحمل في طياته تزامنه مع التهرب من الخدمة العسكرية ، وكان التمويه بالسفر لتونس . وقيل أنه من أهم الأسباب التي جعلته يكون خارج منطقة إقامته في معظم الأحيان

1 ـ محمد حسن فضلاء: المرجع السابق، ص332.

2 ـ المرجع نفسه.

3 ـ لحميسي سعدي ،شخصية عيسي المعتوقي ومحمد العدوي و دورهما في نشر العلم و مساهمتها في ثورة التحرير، الملتقى الوطني الأول حول تاريخ و أعلام الحضنة، 11ديسمبر 2012 بالمكتبة المركزية ، المسيلة ، ص4.

وخاصة أثناء الحرب العالمية وبعدها المتابعة الفرنسية له لتأدية الخدمة العسكرية الفرنسية وخاصة أن أخاه لخضر تم إجباره على التجنيد العسكري وأخذ إلى الهند الصينية وسمعت منه شخصيا الهول الذي رآه في هذه الحرب . وربما كان هذا عاملا في تهرب أخيه عيسى ، وسببا في أخذ الكنية المشهورة له بالمعتوقي بدل اللقب الأصلي .

ورغم ذلك واصل المطالعة العلمية والتعرف على أهل العلم وخالط الكثير من النخبة الجزائرية ، وكانت هذه المرحلة تشهد غليانا سياسيا في ظل تبلور الحركة الوطنية وظروف الحرب العالمية الثانية ، فنضجت أفكاره السياسية وتشبعت مواهبه العلمية واكتسب الخبرة اللازمة للتدريس .

وبعدها عاد لربوع الحضنة سنة 1942 حيث عرف في المنطقة بمفتي الحضنة وتمكنه في مجال الإفتاء والعلم وصار يقدم على غيره في القضاء والإفتاء ، وكان له نشاطا دؤوبا في مجال التوعية والإرشاد الديني وحل النزاعات العائلية والإفتاء وكثير الاتصال بأهل العلم مثل أحمد البركاتي وعلي الديلمي وأحمد نويوات ...وغيرهم .

ويبدوا أن المحطة الأخيرة له كانت بالاستقرار في زاوية بسكرة. وقيل أن ذلك كان في 1946 وعمل بزواياها كمدرس لمدة معتبرة حتّى نال إعجاب الشباب بحيويته ولغته الجميلة وعذوبة أسلوبه في التدريس ، وتشجيع الناس على تعليم الناشئة وطلب العلم والترغيب فيه . فوجد مقاما بين السكان وأهل العلم والطلبة وتشبثوا به ، وكانت ظروف الحرب العالمية الثانية تفرض عليه مضايقات كبيرة من جراء المتابعة له لتأدية الخدمة العسكرية الفرنسية . ولكنه لم يستسلم ولم يجند أبدا ولم يقع في قبضة فرنسا [1]. حتى اندلعت الثورة فكان له فيها مقاما للجهاد والقضاء .

رابعا / المؤهلات الشخصية والعلمية :

عرف عيسى المعتوقي بسعة علمه وطلاقته في الخطابة وقدرته على الإحاطة بالموضوع المعالج وحظي باحترام سكان المنطقة وأهل العلم ، وفي مجال الإفتاء عرف بقوة ويقظة ذهنه والحجة والتمكن من معالجة القضايا بما يكفل حقوق المتقاضين حتى أنه كان إذا حكم في قضية كان القول الفصل فيها بين أهل العلم حسب روايات المعاصرين له من العائلة .

وبالإضافة إلى علمه زاده الحياء وحسن الخلق وكثرة العلاقات مع أهل العلم وسكان المنطقة وقوة الحجة فنال احترام الجميع وخاصة الشباب [2]، محبا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [3].

1 ـ محمد حسن فضلاء: المرجع السابق، ص331.

2 ـ المرجع نفسه.

3 ـ استقيت ذلك بدقة من عدة أفراد منهم : حميدي مبارك ، الوالد :حميدي محمد.

وكان لا يكل في تنقلاته لطلب العلم أو التنقل للفتوى وحل النزاعات ، للإشارة أن البعض [1] يشير أنه كان ضعيف البنية وهذا غير صحيح لأنني سمعت أكثر من خمس شهادات ممن عاصره وما زال منهم ممن على قيد الحياة [2] أنه أعطي بسطة في العلم والجسم وكان لا يقوى على مغالبته جسديا أحدا من أترابه .

خامسا / النشاط الديني والقضائي بالمنطقة :

أ - النشاط الديني: في مجال الدعوة العامة كان حريصا على نشر الثقافة الشرعية بين المحيط القريب منه وتعليم الناس أحكام الشريعة ودعوتهم التخلي عن البدع والخرافات واستغل اللقاءات العامة والمجالس للتذكير بالأمور الشرعية ، والدعوة إلى محاسن الأخلاق . واستغل جريدة البصائر [(3)] لنبذ الكسل والتمسك بالأخلاق الحميدة وكانت فضاء له لنشر الوعي بصفة عامة ولذلك كان يدعوهم لاقتنائها .كما كانت المساجد وخطب الجمعة المكان المناسب للدعوة ونشر القيم والوعي الوطني وحرص على افتتاح المساجد في المنطقة لتكون أماكن عبادة ومنابر علم وتربية ناشئة ومنها : مسجد الشهيد أحمد بركات بقرية حميريط بالبراكنية بلدية اولاد دراج، ومدرسة وفرع لشعبة جمعية العلماء بمنطقة أولاد حناش شمالا ، ومسجد شمال بلدية أولاد اعدي لقبالة حاليا ، وحسب السيد عبد القادر نور أنه كان يعمل على تدريب الشباب على الدعوة وتعلم الخطابة في المساجد [4]. وكان لا يترك فرصة أو لقاء إلا واستغله في التوعية الدينية والسياسية .

ب - الإفتاء والقضاء في المنطقة :

وفي مجال الفتيا تبوأ المقام الأول في المنطقة وعرف بمفتي الحضنة ونال إعجاب الناس ، من خلال عدله وثقافته الواسعة وإلمامه بالأحكام الشرعية وعدم مجاملته للمتقاضين ولا يخاف في الله لومة لائم . وعرف بقدرته على حل النزاعات العائلية والعقارية ورد المظالم ، وكان يشرف على القضايا الشخصية من زواج وطلاق وحقوق الحضانة والنفقة [(5)].ونال ثقة سكان المنطقة في حل النزاعات المختلفة ، وباحترام أصحاب العلم فيما يقضي به ويعتبرونه مرجعا في الإفتاء والقضاء .

---

1 ـ أنظر: جريدة البصائر، عدد 168 جوان 1939.

2 ـ في لقاء شخصي معه أدلى لي أنه أقدم في خطبة جمعة أثناء افتتاح مسجد جديد وبشكل فجائي .

3 ـ لحميسي سعدي : مرجع السابق، ص3.

4 ـ أنظر: جريدة البصائر ، عدد 168 جوان 1939.

5 ـ بيرم كمال: الأوضاع الاجتماعية، المرجع السابق، ص461.

سادسا / نشاطه في الحركة الوطنية :

من الواضح أنه كان على وعي سياسي كبير أثناء الثلاثينات حيث تبلورت الحركة الوطنية بشكل كبير ، ويظهر ذلك من خلال دعوته إلى نبذ الكسل والخمول والعادات البالية بالمنطقة من خلال جريدة البصائر[1]، التي تدل الكتابة فيها على مقام الرجل بين أهل الإصلاح والدور الذي يقوم به في المنطقة . وكان يدور في فلك الإصلاح الديني وأحد أعمدة الجمعية لأنه من خريجيها والمراسل لجريدتها ، والمعتمد لفتح مدارس لها في الحضنة وضواحيها كأولاد حناش وغيرهم.

وقبل أنه انخرط في حزب الشعب منذ 1943 ومنذ 1946 توجه للعمل في ضواحي بسكرة وهناك كان له احتكاك بعناصر حزب الشعب أو حركة الانتصار للحريات الديمقراطية وعمل على التوعية بين الشباب وجمع الاشتراكات وعقد الاجتماعات وعرف باحترام الجميع له وقدرته على التخفي في نشاطه على السلطة الاستعمارية ، كما كان نشطا في الناحية الشرقية للحضنة في هذا المجال . كما انخرط في المنظمة الخاصة في 1947 . وعموما ظل نشاطه كمناضل في الحركة الوطنية سريا وهاربا من قبضة الاستعمار طيلة الفترة 1945 و1954 أي حتى اندلاع الثورة [2]، لكونه معني بالخدمة العسكرية أصبح مطاردا وبالتالي يتخفى في ثنايا جهات المنطقة والدليل أنه استدعي للخدمة العسكرية مجدا سنة 1951.ورغم أنه تزوج في حدود 1949 من سيدة من عرش الطلبة تسمى فطيمة وتلقب بالطلبية[3] ، وأنجب منها ثلاث بنات وولد. لكنه ظل هاربا من قبضة الاستعمار ومناضلا في المنظمة السرية .

سابعا / دوره في الثورة :

1 - نشاطه الثوري :

يتضح أن دوره كان من خلال النشاط التعبوي والديني للشباب وتعميق البعد الوطني وتغذية روح الجهاد مستغلا كل الفرص من مناسبات ولقاءات ومجالس وزوايا ومساجد وخاصة أنه كان له قبول اجتماعي وملكة قوية في الإقناع والحوار. والدعوة إلى محاربة العدو الفرنسي الغاشم الذي انتهك المقدسات وأخذ الأملاك .وحسب المراجع أنه ساهم الإعداد للثورة بالتنظيم والدعاية ونشر الوعي ، ولما اندلعت كان له حضورا في الناحية الشرقية من المسيلة ، وقيل أنه ساهم في الهجومات على الشمال القسنطيني وتنظيم مؤتمر الصومام . ولكن المؤكد والثابت من حيث الوثائق الدور المحوري الذي لعبه في الولاية الأولى في

1 ـ توفيت في حدود 2013 . بمنطقة فوكة البحرية ب، ولاية تيبازة .

2 ـ منظمة المجاهدين لولاية المسيلة،قسمة المجاهدين أولاد عدي لقبالة :نبذة عن حياة المعتوق أثناء الثورة .

3 ـ محمد حسن الفضلاء :المرجع السابق،ص323-333.

المنطقة الأولى تحت قيادة لعموري منذ 1955 أي تحت قيادة بن بوالعيد وشيحاني البشير و عباس الغرور ومجل عجول ... [1] ثم منذ نوفمبر 1956 عمل في المنطقة الأولى من الولاية الأولى بقيادة محمد العموري كقاضي.

وفضلا على المهمة الكبرى له وهي القضاء الذي أشرنا له من خلال الوثائق السابقة ، كان له دورا آخر وهو التعبئة ، ومحاربة الدعاية الفرنسية ، وتثبيت سلطة نظام الثورة في التقاضي والعقود والبيوع وغيرها في منطقة باتنة وبريكة وامتد أحيانا إلى سطيف . وهو ما شكل هاجسا للسلطات الفرنسية التي طالما بحثت عنه ولم يقع في يدها مما دفعها لرصد مكافأة مالية لمن يدل عليه [2]. ولكن سرعة تخفيه وذكاه حال دون إلقاء القبض عليه حتى استشهد في الميدان سنة 1962.

واستمر يمارس القضاء تحت سلطة القيادات المختلفة للثورة بالولاية الأولى : محمد شريف ثم محمد لعموري (1958) ثم قيادة أحمد نواورة ، ثم تحت قيادة العقيد أعبيد محمد الطاهر سنة (1959) .

وإضافة إلى المهام القضائية كلف منذ 1959 بالعمل على تجنيد الشباب في الثورة وخاصة في المناطق التي له فيها بثقة بين أوساط السكان مثل : الطلبة و الشبابحة و المعاتيق و الشرفة وبوطالب.ونجح في هذه المهمة بشكل كبير بشهادة المجاهدين [3] وكان هذا العمل يصاحبه

- نشر روح الوعي والتضحية وحب الجهاد بين أوساط السكان
- وتقديم الدعم المالي والمادي اللازم للثورة .
- ورفع المعنويات بين الجنود وحثهم على التمسك بالأخلاق والحفاظ على العبادات والتضحية في سبيل الله.

2 - القضاء أثناء الثورة :

وقد أنجزت الدكتورة صالحي منى رسالة دكتوراه حول القضاء في الثورة وعثرت على الدور الهام الذي أداه في القضاء أثناء الثورة وقبلها . ومن خلال بعض الوثائق التي تحصلّت عليها من مديرية المجاهدين بباتنة حول هذه الشخصية ، وقد زودتني بنسخ منها . والجدير بالذكر من خلال هذه الوثائق موسومة بالطابع الرسمي للثورة وختمها وتحمل اسم الجمهورية الجزائرية ، وحول جمتها تحمل : الولاية الأولى ، المنطقة الأولى، الناحية الثانية ، وكلها تقريبا تعود إلى خريف 1959.[4] .والملاحظ أن هذه الوثائق تمس

1 - بيرم كمال: الأوضاع الاجتماعية، المرجع السابق، ص462.

2 – هذه الوثائق بحوزتي .

3 - هذه الاستنتاجات من خلال عينات من الأحكام والتحري الذي حملته الوثائق التي بحوزتي وتحمل توقيعه.

4 - منطقة المجاهدين بالمسيلة: المصدر السابق، ص03.

المنطقة الغربية من باتنة حاليا وما يدور حولها من دواوير وخاصة أولاد عوف ومنطقة التوتة .ومن خلال الدراسة لهذه الوثائق من حيث الشكل والمحتوى فإنها ذات خط جميل وبناء منظم في الصياغة والكلمات والمعاني وترتيب منهجي تدل على تمكن صاحبها من اللغة ودلالاتها وخاصة في قضايا الدين والإفتاء. ومن الأشياء المهمة الواردة في هذه الأحكام التي يجب التأشير عليها ما يلي :

ـ انها كانت باسم الجمهورية الجزائرية والثورة .

ـ تحمل كثرة التحري والإحاطة بالأملاك والأشخاص .

ـ استهجان البداوة والجفوة المسيطرة على الطباع في المنطقة .

ـ العمل على معاقبة كل من رفض التقاضي عند نظام الثورة .

ـ دفع قدر معين من المال عند البيوع ـ نزع الثقة في أي شخص من أن يكون مسؤولا في نظام الثورة ولا يحظى بالثقة والأخلاق الحسنة في المعاملة [1] .ذم أصحاب الأخلاق السيئة والنفاق ، والسلوك الدنيئ .الصرامة في الأحكام والتحذير من التعدي على أملاك الآخرين والتزوير وشهادة الزور.وبالتالي فإن مهامه القضائية كانت مزدوجة بين القضاء المدني لفض المنازعات بين السكان حتى لا يكون القضاء في يد فرنسا وفرض السلطة الثورية .

وكذلك القضاء العسكري الذي ترأسه في هذه المنطقة .

رغم انخراطه في العمل الثوري منذ البداية لكن الله أطال في عمره رغم المخاطر التي تعرض لها والمعارك والكمائن التي نجا منها ، ورغم سعي السلطة الفرنسية للقبض عليه والمغريات التي قدمتها لكن أراد الله ألا يقع في يد المحتل حتى الاستشهاد سنة 1962 ، ولحد الآن لا يعرف لدى العائلة تاريخ أو مكان استشهاده ككثير من المجاهدين الذين استشهدوا . وقيل أن ذلك كان بأيام قبل وقف إطلاق النار في معركة رأس لعيون في مارس 1962م[2].

(1)- الطاهر العبيدي: (1304 – 1387 هـ /1885 -1968 م): شريف النسب واحد علماء سوف المشهورين حيث تعلم بكتاتيبها، لما تعلم بالزيتونة واستقر في توقرت وله عدة مؤلفات أشهرها النصيحةالعزوزية: ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، ط1، دار العرب الإسلامي، بيروت سنة 1998 ص 132.

(2)- عبد الحي الكتاني: محدث فاس في عصره وابن محدثها، ولد بفاس سنة 1305 هـ/ 1888 م تتلمذ بالقرويين وتصدر المشيخة الكتابية. كان من ابرز مناصري المولى عبد الحفيظ، للمزيد عن نشاطاته. ينظر ابن مخلوف (محمد بن محمد) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الطبعة السلفية القاهرة، 1930 ص 477.